المغرب الذي كان



تأليف : والتر هاريس

المحتويات

البلاط المغربي

I. انضمام عبد العزيز

قدومي الاول للبلاط المغربي كان سنة 1987 م فقط بعد أشهر قليلة من وصولي للمغرب , عندما تمت دعوتي من قبل المندوب البريطاني السير "وليام كيربي ـ كرين" و ذلك لمرافقته في مهمته الخاصة للسلطان .

كان "الحسن" أنذاك في ذروة قوته, لقد كان سلطان قاسيا و ربما جائرا بعض الشيء لكنه متمكن حتما, كان طاقته لا تنضب لقد حافظ على النظام في القبائل المتمردة و قطع الثورات المستمرة عن طريق التوغل في البلاد بجيش من الجنود الرعاع. لقد كان من النادر أن يمضي ستة أشهر متتابعة في أي من عواصمه المتعددة, بينما سادت جملة واحدة بين كل المغاربة " الخيام الامبريالية لا تبقى " .

هذه الرحلات تطلبت تنقلات غير اعتيادية صعبة التقدير, لم يكن السلطان وحده مع نسائه المتعددات و وزرائه و عائلاتهم و قوامهم , بل كان معه أيضا عشرة آلاف جندي مع حشد من

المخيمات التابعة (مومسات الجيش),تبعهم عديد كبير من التجار قصد دفق التجارة للجهة المزمع الاستقرار فيها .
أما عن نتائج هده التجارة بهته الكيفية فيمكن تخيلها من خلال كلمة "حارْ َهْ" (غير خاضعة للجمارك/مهربة), و لا يهم ادا كانت الوجهة متمردة أو ثائرة او مسالمة, فيجب ايصال الأكل و العلف لهذا الحشد الكبير الذي كان يأتي على الأخضر و اليابس, لقد كان سربا من الجراد أكثر منه حشدا من الناس.
لم يكن الأمر تغريما قانونيا بل كان اغتصابا و نهبا, كان يجب رشوة الوزراء و الدفع لهم مع حاشية السلطان, في حين أن كل جندي و مومس كان ينهب لحسابه الخاص .
عندما كان الناس يسمعون بقدوم احدى هذه التوصيلات الامبريالية كانوا ـ في حالة الاستطاعة او الجرأة ـ يهربون الى جهة أخرى, لقد كان السلطان نادرا ما يمر بمكان خال أو قاحل الا اذا كان على العامل المندوب أو والي السلطان ـ و الشيخ ـ المندوب القبائلي ـ التواجد هناك لصب الثروة الضئيلة للقرى في الخزائن الملكية.
لقد كان المغرب شبه مجهول في تلك الحقبة, لم تعر أوروبا اهتماما كبيرا لمن يمر في حدودها طالما أن تحركات السلطان لا تثير الريبة و لا تطرح أية تساؤلات خطيرة على الصعيد الدولي.

لقد كان مسموحا له بالذهاب , كان ميزته في ذلك هو صراع بريطانيا و فرنسا في مواجهة اسبانيا ضد صراعها التافه مع القبائل المحيطة بقلعها الاستعمارية, في الساحل الشمالي عاش المغرب حياته من جهة, لقد كان حقا بوابة للبحر الأبيض المتوسط لكن المثير فيه كان البحر الأطلسي.

من وقت لآخر كانت الحكومات الأروبية ترسل مهمات خاصة للسلطان, نزهات ضخمة لاحدى العواصم,فيما يتم تسوية القرارات العالقة من عدمه (رشوة), اتفاقيات تجارية و حِلف صداقة أبدي من طرف كاره للطرف الآخر حيث كان شعور المغاربة تجاه الأروبيين و المسيحيين يتسم بالكراهية.

بوشرت مهمة السير "وليام" عن طريق البحر الى "مزكان" منقولة على سفينة حربية بريطانية, ثم برا الى "مراكش". حيث كان السلطان قد أرسل وسائل التنقل و الخيام كما هي العادة الى الساحل لهذه الغاية.

في ذاك الوقت بدأ الفساد في دولة المغرب ,و مع ذلك كانت يدا "الحسن" قوية لتجمع نفسها, و قدمت للعالم الخارجي كمثال للكرامة المطلقة.

لقد سافرت البعثة البريطانية عبر القبائل تحت حماية مثالية, و استقبلت بكل شرف و ابتهاج, تدفقت الاطرائات كالسيل, كلمات طيبة و جهر بالثناء و كله كان نفاقا .
عند وقت الوصول كان الجو مزيجا من الغسق و شروق الشمس , دخلنا الى العاصمة الجنوبية, دروبها ضيقة و متشابكة, حشود من المتفرجين ,جموع الخيول و البغال المسحوقة و الرجال اليائسة,و وصولنا الى الحديقة الكبيرة من الزيتون و البرتقال المحيطة بأكشاك قصر "المامونية" الذي كان منزلنا طيلة مدة مكوثنا في "مراكش".
لقد خلق استقبال وفد المبعوثين الأجانب من قبل السلطان موكبا رائعا, لكن بعد سنين تغيرت كل هذه الرسميات, و أصبح ممثلوا الحكومات الأروبية غير محل ترحيب.
لكن طالما بقيت الشكليات الاحتفالية لم يكن هناك شك في روعة الاستقبال فقد أصبح الأمر أكثر ازدراءً, بما لا شك فيه, بالنسبة لممثلي القوى الأروبية العظمى, كان الوقوف عاري الرأس تحت أشعة الشمس بينما كان السلطان تحت المظلة الشمسية ممتطيا جواده, غير مريح طبعا, لم يكن احد قادرا على مخالفة الحيوية المثيرة للصورة الذهنية للموقف أو قداسته الشرقية.

لقد كان ميدان القصر شاسعا يغطي العديد من الفدادين, و فيه تم الاستقبال, كان محاطا بجدران صفراء تتخللها بعض البوابات هنا و هناك, و في افق هذه الجدران, برزت المدرجات المسطحة و الأسقف الخضراء المتراصفة للقصر, وفي الطرف الآخر كان هناك شجر السرو و الزيتون الخاص بحديقة "أكدال" الكبيرة.

بعيدا الى الجنوب,كانت جبال الأطلس الشاهقة مكسوة بالثلج,كان الأمر أشبه بمسرح خيالي,كان الميدان مليئا بالعساكر مصطفين, بثياب رثة و شبه ملونة, كان البعض منهم لا يرتدي بذلة رسمية, كانوا جميعا رثي الثياب, في حين كان آخرون في ثياب أنيقة من كل لون, كان جليا انها كانت لهذه المناسبة خصيصا,و بتفصيل أدق كان الأمر كقوس قزح, في منتصف هذا الميدان كان المندوب البريطاني في بذلته وراء موظفين بلباس ابيض لاقتياده الى البلاط, غير بعيد من مجموعة الأروبيين ذوي اللباس الموحد, كانت تقبع حقائب الهدايا المهداة من قبل الحكومة البريطانية الى جلالته الشريفة. في الحقيقة, كان الأمر برمته لاستقبال الخدم و عرض الجزية.

و على ضجيج الأبواق, فتحت أبواب القصر الخضراء الكبيرة و اجتمع حشد الحاضرين بسرعة بلباس أبيض و طرابيش قرمزية ظاهرة للعيان.
مصحوبا بموسيقى صاخبة ـ ناي و طبول ـ مر موكب يحمل رايات الدولة و العصي و الرماح, بينما اقتيد عرسان الأحصنة المسرجة بالحرير و الملجمة بالذهب (بينما كان الناس يموتون جوعا), كانت تصهل و تقفز في خضم هذا الضجيج, و من ثم يأتي السلطان, بلباس أبيض و فوق فرس أبيض ذي سرج أخضر و ذهبي, فوق رأسه شمخت مظلة شمسية ذات لون قرمزي مخملي و ذهبي ترمز للدولة. و في جانبه حضور يهشون على الذباب ليبقى بعيدا عن شخصه المقدس . يتبعه وزرائه, رجال سمان ملفوفون بلحاف أبيض, يليهم المزيد من العبيد و الحضور, و بينما يمر موكب السلطان المبجل,تتعالى الصيحات و يبكي الرجال الراكعون و يصيحون "لحمي الله حياة سيدنا" (يركعون لغير الله و يطلبون من الله ؟).
و في حين يقترب الموكب من الوفد البريطاني تتفرق الحشود الى اليمين و اليسار ليتقدم السلطان و حاجبه مع واحد أو اثنين من الحضور مع كل الوزراء, انحنى له كل أعضاء البعثة مع التحية, ليقدم الحاجب المندوب البريطاني لفخامته, الذي

بدوره يحييه, تقدم السِيرْ (رتبة أو منصب بريطاني) "وليام كيربي كرين" و قرأ خطابه مقدما أوراق اعتماده ملفوفة في الحرير, يقبلهم السلطان و يمسكهم في يديه بينما يسمك في ذات الوقت ثنايا عبائته بين أصابعه المقدسة مع وثائق ذاك الكافر, و بعد إلقاء كلمة ترحيب أو كلمتين ينصرف السلطان عائدا الى قصره مصحوبا بمكاء الحاضرين و أصوات القذائف المدفعية و الموسيقى التقليدية الصاخبة.
و قد يحضرني المقام لي أعطي لمحة عن سبب إلغاء هذه المراسم.
لقد ألحقت عام 1902 م بهمة للسير "آرثر نيكوسلون" الخاصة الى السلطان ع. العزيز في الرباط, في ذاك الوقت آمن الأروبيون أنه يجب تغيير مراسم استقبال البعثات الأروبية, لذا تم إرسالي الى "الرباط", أسبوعا قبل بدأ المهمة لحث السلطان على منفعة هذا التغيير, كنت على علاقة وطيدة بالسلطان لذا كان الامر سانحا بأن أضع له هذه الرؤى أمامه, لقد كان ع. العزيز و لايزال يحمل غرائز الرجال الحقيقيين و قد وافق بسهولة على أن تلك المراسم تزدري من قيمة المبعوثين الأروبيين المميزين و ذوي السيادة لحكومة بريطانيا العظمى.(عجيب هو تجاوبه مع الأجانب في حين أن معارضته تنتهي بالاعدام)

لكن في نفس الوقت أوضح أنه من الصعب القيام بتغييرات جذرية لمراسم البلاط دون إحداث حالة من العدائية بين الناس (وكأن رأي الناس يهم), أو على الأقل سيثير الأمر موجة من الإنتقادات, لقد كان يتلكأ لبضعة أيام لكن و في الليلة التي تسبق يوم وصول البعثة سمح لي بإبلاغ السير "آرثر نيكولسون" بأن المراسم المعهودة لم تعد قيد التنفيذ, و أن الإستقبال سيكون في احدى غرف القصر,و لتبرير التغييرات (فقط لكي لا يبدوا السلطان ضعيفا) سمح بإشاعة خبر عن مرض فخامته ما يجعله غير قادر على عياء الإستقبال في الهواء الطلق.
و كما اتفق عليه, تم الإستقبال في غرفة علوية في القصر, جلس السلطان الشاب متربعا علفه مِصَ ّة زرقاء شاحبة من نوع "لويس XV " كان الجزء الأكبر منها مغطى بلحاف ردائه الأبيض, و على جانبه وقف وزير الشؤون الخارجية مع باقي الوزراء, قدم الحاجب بتقديم المندوب البريطاني الذي قرأ خطابه الإنجليزي بينما تمت الترجمة من قبل مترجم محلف, همس له السلطان بالجواب.
لقد كان المشهد جذابا, و بطبيعة الحال أكثر ملائمة و صداقة من المراسم القديمة, و لم يُهَنِ الطرف المستضاف, حضر الشهود(غالبا مجلس الشورى) هذا الإستقبال الذي دام بضع

دقائق. بينما انصرف المندوب و رفاقه, كنا على وشك الوصول الى نهاية الدرج, تمت مناداتي بصوت عال للمثول أمام السلطان, وجدته قد رمى عباءته البيضاء الفضفاضة التي كان شبه مغلف بها, و قام بإرخاء عمامته الثقيلة بشكل أقل ثقلا, كان وزرائه و الشهود قد انصرفوا, ناداني السلطان للقدوم سريعا و صاح :" اصعد الى هنا, خلف المصفة, يمكننا مشاهدة المندوب و رفاقه يغادرون البلاط" ,تشبث السلطان بمرفق عرشه المذهب و المنحوت, ليرفع نفسه عاليا بيديه ليكون قادرا على النظر من خلال نافذة صغيرة في حائط غني بالنقوش, اقفاءا بما فعله السلطان فعلت نفس الشيء, و بالفعل شاهدنا أعضاء البعثة و هم ينصرفون في صهوة أحصنتهم.

في أول زيارة لي للبلاط, كان "أحمد بن موسى" و المعروف بـ"بَّاحْمَادْ " أكثر شخص مهمين فقد كان يشغل منصب حاجب السلطان, و هو منصب حساس و ذو أهمية شديدة, فهو دائما ملازم للسلطان و لديه كل الوقت ليهمس في أذن السلطان.

لقد كرس حياته لتلبية حاجات السلطان و خدمه بكل جد و تفان, لقد كان والده عبدا من عبيد القصر, و كان هو أيضا أسود البشرة و ذو مظهر غير جذاب, لم يبدر منه ما يدل على أنه ذو ذكاء خاص, لم يكلف نفسه عناء فهم العلاقات

الخارجية للمغرب, لقد كان يرفضها تماما, من جهة سياسية أكثر منه دينية, كان واضحا أنه لا يتبنى سياسات ثابتة. وفيما بعد, بعد أن تم تعيينه في منصب الوزير الأعظم (الصدر الأعظم او رئيس الوزراء) للسلطان ع. العزيز كان يترك قرارات العلاقات الخارجية لباقي الوزراء, رغم ضلوعه في كل القرارات أنذاك.

كان وزير الخارجية في عهد السلطان "الحسن" هو "فَضّول غرنيت" رجل ذكي و داهية, لا يزال على قيد الحياة رغم سقوط الحكومة التي كان فيها ـ في ذاك الوقت سقوط الحكومة يعني أيضا سقوط الرؤوس ـ تم تشخيص حالته بالجلطة الدماغية, ما أخفاه عن الأنظار, لقد كان في ثنايا منزله متوقعا أن يصيبه الشلل, بعد أعوام من ذلك حدث تغيير في الوزارات, تعافى على إثره "فضول" و عاد أكثر حيوية و شباب من ذي قبل, ليعيين في منصب الوزير, لقد تقاعد اليوم و اعتزل العامة و استقر بـ"فاس",و مما لا شك فيه أن إعاقته, سواءا كانت حقيقية أو مزيفة, أنقذت عائلته من الشتات و ثروته من المصادرة و حتى حياته أنقذت من السجن أو الإعدام. كانت الأعمال كبيرة و المسؤوليات صعبة في الوزارات المغربية, لم تكن هناك

مضايقات من المعارضة فلم تكن هناك معارضة أصلا و لو حدث و كان هناك من يعارض فسزج به في السجن.
في سنة 1983 م, اعتزم "الحسن" زيارة الأقاليم الصحراوية للمغرب,بما فيها "تافيلالت" , الواحة العظيمة التي تنحدر منها السلالة الحاكمة, و التي كانت و حتى قبل تولي الحكم, منزلا لمؤسس السلالة, الحفيد الأكبر(على حد زعمه) لرسول الله صلى الله عليه و سلم الذي كان منفيا من بلاد المشرق العربي .
مغادرا فاس في الصيف, اتجه السلطان جنوبا "قصبة المغزن" أو "المخزن" و نزولا الى مياه "واد زيز",توصيلة كهذه بحاجة كبيرة الى كم هائل من الترتيبات يفوق الإمكانيات, كان الطعام شحيحا, لم توفر الصحراء إلا القليل (لكنها الان توفر الكثير),و الماء ملوث و الحر شديد. كان أي تأثير كيفما كان, سواءا عصيانا أو عقابا للقبائل يعيق حركة السلطان,لم تصل الرحلة إلا بحلول الشتاء مع جيش مصاب بالحمى.
رجع "الحسن" من "تافيلالت" رجلا ميتا, أصبح الألم الداخلي الذي عانى منه حادا أكثر من الصعاب التي مر بها في رحلته, لم يستطع أن ينال قسط الراحة الموصى له به من قبل وزير الصحة,و لا حتى الخضوع لحمية, لقد بقي في العاصمة

الشمالية لبضعة أشهر, في ربيع 1894 م توجه لقمع ثورة مندلعة في جهة "تادلة".
أثناء التخييم توفي السلطان, كان موته في خضم هذه هذه الظروف يشكل تهديدا للدولة فقد كانت كل السلط بيده, لقد كان عاهلا مطلقا, ستكون الحكومة بدونه في غفوة الى أن يتم تنصيب ولي العهد.
و مجددا, كانت الرحلة الى جهة ثائرة و أي تسريب لخبر موت السلطان سيحمل القبائل الى الإغارة على المخيم الإمبريالي و أخذ الغنائم, مادام السلطان حيا و امداداته متواصلة , كانت هيمنته كافية لتجنب أي هجوم من القبائل ـ برغم ان هذا وقع في مناسبتين أو اثنتين ـ و إبقاء قواته مجتمعة كالجسد الواحد. لكن وفاته في حالة انتشرت ستتسبب في الفوضى ,فحتى الجنود لن يوفتوا فرصة الإنقلاب. لذا وجب إبقاء الأمر سرا فقد مات السلطان في خيمة معزولة عن الجنود بحائط من الخيش, و الذي كان في مناسبات قليلة ما يسمح لأحد بتجاوزه. لقد كان خبر الوفاة حكرا على عبيده الخاصين و حاجبه "باحماد".
أعطيت التعليمات بتحرك الموكب الملكي بحلول الفجر,و قبل طلوع الشمس تم تجهيز الناقلة الملكية (غرفة خشبية كتلك

التي تحمل فيها جثث اليابانيين للحرق) و حملها الى وسط السياج الإمبريالي كانت الجثة ممددة داخل الغرفة, بأبواب مغلقة و ستائر مسدولة, و على أول شعاع خافت للفجر تم إخراج الغرفة و تحميلها على البغال,بدأت الفرقة بالعزف و الأبواق بالصرير (لا يحضرني صوتها الان),و أجهش العبيد بالبكاء: "ليحفظ الله مولانا", انتظم الموكب و اقتيد برايات الدولة و سار السلطان الميت في المسيرة العسكرية.
غطى المسير مساحة كبيرة ذاك اليوم,شيء واحد أوقف الموكب, عندما تم حمل الغرفة الى خيمة بجانب الطريق, وقت إفطار السلطان,تم تحضير الفطور و تقديمه, شاي مع كل مستلزماته و لا أحد غير العبيد الذين يعلمون بموت السلطان سمح لهم بالدخول بينما بقي الحاجب مع الموكب في الخارج,دخل بعد برهة ليطمئن على جلالته و يتأكد من تناوله لفطوره و حظي بالراحة و سيتم الرحلة بعد ذلك,و بعد تحرك الموكب كانت بانتظارهم مسافة طويلة الى المخيم التالي لقضاء الليلة.
"إن السلطان متعب",قال الحاجب, و لن يستطيع الخروج لتولي زمام الأمور كما ينص العهد (بروتوكول) في خيمة الديوان ليجلس مع الشهود, لقد أخذت التساؤلات الى خيمة السلطان

على يد الحاجب الذي كان يجيب عنها و يخرج أحيانا و في يده ختم الدولة.
و بعدها في يوم مسيرة عصيب و في منطقة خطيرة كان موت السلطان على وشك الإنكشاف فقد كان الوقت صيفا و حالة جسده تكان تفشي السر, أعلن حينها "باحماد" أن جلالته توفي قبل يومين, و قد عين ابنه ع. العزيز خلفا له, تم البيعة في الرباط و أرسل السعاة و الرسل بالخبر بعد الوفاة.
لقد كانت مهمة كاملة, فالجيش الان آمن من خطر القبائل و بمعرفة أن السلطان الجديد تولى زمام الحكم نشر الأمن في كل مكان و اجهضت أي محاولة للإنقلاب من قبل الجنود, بينما اغتنم البعض الفرصة للهروب الى الصحراء, و هو مالم يسترع أي انتباه.بعد يومين كان جسد السلطان في حالة رهيبة من التحلل (فلو كان من المقدسين أو حتى من الشهداء لما تحلل),لقد وصل توا الى الرباط و أقتبس من وصف ابنه له :"كان الأمر فظيعا فبعد خمسة ايام في حر الصيف وصلت غرفته المترنحة حاملة جثته المزرية ", لقد تمت إزالة كل الأطباق من الغرفة بينما بقي طبق من الزبدة الأولى من الموسم حيث قام أستاذ الأمراء بلفها فوق رأسه ووضع مكانها طربوشه العالي بينما صرح أنها أكبر من أن تهدر على عبيد

القصر, تم إخبار السلطان بتلك السرقة فقرر أن يتسلى بأستاذ ابنه, فدخل الى الغرفة حيث الضيوف, ألقى إليهم بالتحية و كلف نفسه إلقاء الإطراء عليهم. هنئ السلطان الأستاذ بقوله :"يجب تكريمه, أحضروا ماء الورد و الزَّهْر (ماء مقطر من زهور الليمون) ", كان من عادة الولائم المغربية ان يرش الضيوف بماء الورد و الزهر,و تعطر ألبستهم بالبخور. و عليه تم إخراج المرشة الفضية ذات العنق الطويل و محرقة البخور النحاسية, أعطت أخشاب الصندل رائحة زكية, و لتكريم الأستاذ تم رشه كالعادة و شـ ـُمّر على أكمامه الطويلة ليمرر العبيد المبخرة من تحت ذراعه ليدخل البخور لكامل ردائه.و من ثم تم رفع غطاء البرنوص لتبخير الوجه و الرأس, كانت مراسم التبخير لا تأخذ أكثر من نصف دقيقة لكن العبيد بالغوا في الأمر بدون سبب, كان البخور الزكي هو السائد لكن الراحة تغيرت فجأة الى راحة خانقة, لقد كانت الزبدة في طربوشه هي السبب, فبدأت تسيل تحت تأثير حرارة الجمرات و ما لبثت الى ان تحولت الى سيل من الزبدة جعل الأمر الأستاذ يَئِن بشكل مثير للشفقة, كان نصف أعمى و مختنقا و يتصبب زبدة ً. كان السلطان قد رحل ليتم تنظيف الأستاذ.(لم يكن هذا

الأسلوب في العقاب جديدا فقد كانت هذه طريقة هذه السلالة الحاكمة)
كان ع. العزيز عند توليه الحكم في 11 أو 12 من العمر عام 1894م لقد كان أصغر ابن للسلطان المتوفى و لم يكن بالضرورة أن يتولى الإبن البكر للسلطان مقاليد الحكم لأن العادة جرت أن تتم مناقشة الأمر داخل العائلة المالكة لكن السلطان هو من له كلمة الفصل في الأمر و ذلك عن طريق ذكر اسمه. لقد كان الإنحدار من السلف ـ رسول الله صلى الله عليه و سلم ـ أهم عوامل اختيار الخليفة دون اعتبار لموت السلطان أو نجاحه في الحكم, فبعد تنازل ع. الحفيظ عن الحكم سنة 1912م تم ترشيح أخيه غير الشقيق لخلافته و تم بالفعل قبوله دون اي تردد ذلك نظرا لسلالته و بداهته في اتخاذ القرارت (و منها توقيع معاهدة الحماية) .
لقد كانت أم ع. العزيز امرأة تركية تم استقدامها من "القسطنطينية"(إسطنبول) ذات ذكاء عال و شخصية تنم عن القوة و الحزم,لقد كانت أما مخلصة و قيل أنها لعبت دورا هاما في سياسة البلد حيث تناقشت مع زوجها مختلف القرارات و كذلك في تولي ابنها مقاليد الحكم (نفس حكاية سليمان القانوني مع زوجته الروسية الى حد ما), لقد كانت

قوية الشخصية ـ لم تكن لقمة صائغة في المتناول ـ كانت صديقتها في "الحريم" (مهجع زوجات السلطان) امرأة تركية أيضا و الحامل بالسلطان يوسف أنذاك, إنه لمن الغريب أن تكون امرأتان غريبتان في بلاد أجنبية عنهما أمين لاثنين من السلاطين.

لقد كان من الطبيعي أن تحاك المكائد و الدسائس بعد تولية قاصر في الحكم. كان هناك عاملان حاسمان في الموضوع هما من جهة الحاجب "باحماد" ذي السيادة الآن و القائد الأعلى لأركان الحرب (التي أصبحت فيما بعد للسلاطين فقط), لقد كان كلا المنصبين في يد افراد عائلة "الجامعي" الأرستقراطية و القوية كانتا على التوالي في يد "الحاج أمعاطي" و "محمد سورير", لكن "باحماد" ابن عبد أسود ليس له أي تأثير قبائلي أو حتى عائلي بينما كان أعدائه ذوي نفوذ كبير المدن فقد أسسوا ما يعرف بـ"المخزن" التي يمكن شرحها بأنها عائلة من أعداء الحكومات السابقة,و التي تطالب بالتوظيفات السامية (و هو ما تمكنت منه مستقبلا و الى الان) , لهذا كانت البغضاء ظاهرة بين الطرفين, منصب "باحماد" كحاجب اعطاه صلاحيات السلطان لأنه الولي عليه الى حين البلوغ ساعده في ذلك سلطة أم ع. العزيز فقد كان "باحماد" محل ثقة زوجها و لاعبا أساسيا

في تربع ابنها على العرش لكن وفاقهما ذاك كان بعيدا عن الشك.
بعد تأسيس الحكومة الجديدة تنازل البلاط عن "الرباط" كعاصمة للدولة لصالح "فاس" فأي سلطان لا يمكنه ائتمان بقائه على العرش طالما لم ترضى عائلات "فاس" الأرستقراطية و سلطها الدينية, و فعلا استقر رأي السلطان على "فاس" ـ العاصمة الدينية و العلمية للدولة ـ و عاصمة الدسائس أيضا فتأثيرها على القبائل كبير.
لذا وجب على السلطان الوصول الى "فاس" في أقرب وقت ممكن,كانت رحلته من خلال القبائل الى "مكناس" ناجحة, تم استقباله بحفاوة فهذه عاصمة جده "اسماعيل" ـ لويس 14 المعاصر ـ .
كانت "مكناس" تبعد حوالي 53 كلم عن فاس لذا مازال هناك طريق لقطعها, لقد عرف "باحماد" موقفه جيدا ففي "فاس" لن يكون ذا تأثير, فأعدائه (الفاسيون) سيعولون على دعم السكان و اختيار العاصمة الجديدة للإطاحة بالسلطان, كان الأمر بمثابة "الان أو أبدا" بالنسبة لـ"باحماد".
كان الأمر هدوئا يسبق العاصفة, فقد كان "ولاد الجامعي" ينتظرون وصول السلطان ليكون في مرمى نيرانهم ليبدؤوا

بالمكيد له. كان "باحماد" مهذبا و قليل الدنائة مع الوزراء ذوي التأثير,بعد بضع صباحات من وصول السلطان الى "مكناس" أعدت مراسم التحرك كما هي العادة, “الحاج أمعاطي" الوزير الأول ,محاطا بتابعيه باللباس الأبيض كان متجها الى ساحة القصر وسط الترحيب الرسمي من طرف الجنود, لقد تم استدعائه للمثول أمام السلطان فورا. كان ع. العزيز برفقة "باحماد" و "الحاج أمعاطي" ـ ر ساجدا منتظرا السلطان ليتكلم ـ بصوت بدا عليه الخوف و التردد سأله ع. العزيز سؤالا لكن جواب الحاج لم يكن مقنعا.
بينما انفجر "باحماد" معاتبا الوزير و متهما إياه بعدم الولاء, و الجشع,و الإبتزاز و جرائم سياسية أخرى,فجأة تودد "باحماد" الى السلطان ليسمح له باعتقاله, أومئ السلطان برأسه موافقا. مرت بضع دقائق حيث تم جر شخص أشعث و مذلول يبكي وسط موجة السخريات الى وسط الحشد, كانت ثيابه ممزقة و عبائته غير مستوية, بعد تجاوز البوابة تم جره من قبل أحد الجنود بينما قام الخَفير (حارس البوابة) بالإستلاء على عمامته البيضاء النظيفة و استبدالها بقبعته المتسخة, لم يبد أية مقاومة و سمح باقتياده الى السجن لقد كان “محمد سورير”.

سجّل التاريخ فيما بعد ما وقع لهذين الرجلين بأبشع ما وقع في عهد حكم ع. العزيز (باحماد بالأحرى).
لقد تم إرسالهم الى "تطوان" مقيدين الى بعضهم البعض و مكبلين بإحكام . تتوالى الأيام و السنين و يموت "الحاج أمعاطي" .
كان والي "تطوان" خائفا من دفن الجثة خشية أن يتهم بأنه سمح لسجينه بالهروب, لذا كتب الى البلاط سائلا التعليمات.لقد كان الوقت صيفا و الزنزانة حارة جدا, لم يصل الجواب الا بعد 11 يوما كان خلالها "محمد" مكبلا الى جثة أخيه, لكنه نجى في آخر المطاف فقد تم اطلاق سراحه سنة 1908م بعد ان قضى 14 عاما في السجن, لقد خرج رجلا محطما و يائسا. لقد تمت مصادرة كل أملاكه و توفيت زوجاته و أبنائه نتيجة العوز و الحاجة و الإضطهاد. لقد خرج شبه أعمى من زنزانته المظلمة و أعرج نتيجة للقيود التي كانت تكبله, لقد كان أيام سلطانه قاسيا لكنه دفع الثمن غاليا.
كنت أراه كل يوم في طنجة, كان في فقر مضقع لكن أصدقائه ساندوه و هو لم يكن يطالب إلا بالقليل,لقد كانت إحدى عبيد العائلة قد نجت و هي من تولت رعايته و تدليك معصميه و كعبيه إلا أن فارق الحياة.

قبل يومين من وفاته, التقيته لآخر مرة,كان واضحا انه على وشك الموت, جلست معه لمدة طويلة,و عندما هممت بالمغادرة قال لي :"اسمع,عندما أموت أريد أن أدفن مع الأغلال التي كانت علي, أرغب في لقاء ربي بها كما قضيت 14 سنة في السجن, لعله ينصفني كما لم يفعل السلطان, و يتغمدني في رحمته و يفتح لي أبواب الجنة"(واد يا مؤمن).

كان مستحيلا تلبية طلبه,لكن حضي بدل ذلك بجنازة رسمية حضرها ذووا السلطات و الموظفين, ففي النهاية لقد كان وزير الحرب.

كان السير "اربنست ساتوو" ممثلا لبريطانيا العظمى في المغرب خلال حكم ع. العزيز. انتشرت أخبار مفادها أن القايد "ماكلين" سيرسل الى طنجة بأقصى سرعة, و عليه أرسل لي السير "ساتوو" و ذلك لبعثي في مهمة خاصة الى "فاس",تطوعت بشكل تلقائي لتلك المهمة و تم قبول طلبي.

غادرت في نفس الليلة مع رفيقي (الزْطَّاطْ: دليل في البلاد الغير خاضعة لحكم السلطان) على الساعة 11 ليلا.

كان كلانا مجهزا و مسلحا جيدا, كنت أكره حمل السلاح في دولة كالمغرب و نادرا ما أفعل ذلك, لكن الظروف الآن غير اعتيادية و قطاع الطرق ناشطون.لقد ارتديت زيا تقليديا

كجبلي مع "بَلْغَة"(شبشب) صفراء كما حلقت رأسي بما هو شائع أنذاك. كان غطاء بني اللون يغطي ملابسي القليلة.
لحسن حظي كان الإسطبل أحصنة جيدة اخترنا انا و مرافقي أسرعها و اكثرها تحملا للتعب فهذه الرحلة يجب أن تتم في أسرع وقت ممكن كما علينا البقاء على علم بمستجدات وفاة السلطان ـ شائع في طنجة ـ لم يكن بوسعي الدهاب مباشرة الى "فاس" فخزء من رحلتي كان زيارة الأشراف ذوي النفوذ الذين كنت على معرفة شخصية بهم ـ لحثهم على استعمال نفوذهم لإبقاء القبائل هادئة و الحفاظ على النظام ـ
كان الوقت منتصف الصيف, طلع الفجر باكرا لكن الشمس لم تشرق بعد, كنا قد وصلنا الى "أرزيلة" (أصيلة) 41 كلم بعيدا عن "طنجة",هناك أفطرت برفقة شريف منطقة أبريش (دوار ولاد حلوف أبريش), و هو نسيب "الريسولي" الشهير (هناك فقرة باسمه), رجل يضرب له الحساب, وعدني باستعمال كل نفوذه لإبقاء القبائل هادئة, بعد ذلك غادرت المدينة متجها الى "القصر" (القصر الكبير) و منه الى "وزان" التي تبعد حوالي 8 ساعات من الركوب.
عندما وصلنا الى هذه المدينة "المقدسة" (؟), تم استقبالنا بمودة كبيرة من قبل أشرافها الذين يسكنون هذه المدينة

الجبلية, و نادرا ما يزورها الأروبيون نظرا لقداستها (؟؟),كان ذاك اليوم يوم وليمة و مع ذلك أرسل الشرفاء الى القبائل ليلزموا الصمت. و هذا ما جعلني أبقى في "وزان" إلى منتصف اليوم الموالي بعدها استئنفت رحلتي وصولا إلى "المزيرية" (جرف الملح أو مرجانة) و هي مدينة تقع في تلال أعلى "واد سبو", بتنا هناك لننطلق مجددا قبل صباح اليوم التالي.
كان جليا أن القبائل هنا عرفت بموت السلطان و على مدى الليل كان دوي إطلاق النار في الأفق, و في الفجر استطعنا تمييز مجموعة من الخيالة أسفل الوادي, لقد بدأت حملة التصفية و النهب المنظم.
بدأنا رحلتنا مبتعدين عن مكان دوي النيران قد الإمكان, كان الوضع غير مريح لدرجة أننا نسينا التفكير في قطاع الطرق, فجأة, رأينا قافلة من الجمال يقودها ستة رجال حاملين أمتعتهم و فارين بحياتهم, مررنا عليهم في أمان. كنت قد وصلت إلى "فاس " في اليوم الرابع من رحلتي, كنا قد قطعنا ما بين 304 الى 320 كلم مع انعطافتنا العديدة. و هو ما أتعب الخيول بدرجة ليست بالخطيرة.
في منتصف اليوم, قدمت برقية المندوب البريطاني مع رسالته الشفهية إلى قنصل أحد السلط التقليدية في منزل "أمين حاج

عبد السلام المُكري" الوزير الأكبر المشهور "حاج محمد المكري" و الذي يعد أذكى الوزراء الى الان.

لازلت أتذكر تلك الأيام باستمتاع, فقد أشركت في مهمة فيها شيء من الرقة, فقد تم إقحامي في شؤون محلية.

تمت استضافتي في بيت "المكري" المعروف أهله بالترحاب, كان المنزل كبيرا و له حديقة غنّاء بها الكثير من النوافير/النافورات.

كان الأمر يتطلب شجاعة كبيرة لاستقبال "مسيحي" في أحد دور "فاس" الكبيرة, و أعتقد أنها أول مرة يرحب بشخص أروبي هناك. ارتديت ثيابا تقليدية كسائر الناس و عشت هناك برفقة أبناء العائلة و عوملت على أنني فرد منها, كانت حاجاتي ملباة من خزائن العائلة.

لقد تكللت مهمتي بالنجاح, ففي 14 من يوليوز كتب لي السير "ايرنست" قبولا لطلبي بالإنتقال إلى طنجة, و كتب : « لقد قبل المكتب الأجنبي إرسالي لك إلى فاس و لن يكون معارضا لرجوعك في الوقت الراهن. لقد أرسلت جزءا كبيرا من تقريرك الطويل إلى "ساندرسون" و اللورد "كيمبرلي" و قد لاقى اهتماما كبيرا من طرفهما, و اضيف بأن المهمة كانت صعبة و كنت الوحيد القادر على إتمامها فشكرا لك على كل ما فعلته و أنجح المهمة » .

طالت مهمتي لعدة أسابيع بما فيها رحلات امتدت الى كلومترات عديدة في حر الصيف دون أن تخلوا من الخطورة أحيانا. تمت مكافئتي من قبل الحكومة البريطانية بشيك قيمته 100 جنيه, لم أتذمر و لن أفعل الان, فمن غير الإعتيادي أن تُأجر على مهمة غير رسمية, كان الأمر رائعا, كانت تلك ثاني مرة أتقاضى فيها أجرا خلال خدمتي في المغرب ـ حتى و إن أنقثت أموالي على المهمات ـ, لم أدرك يوما مدى عملي حتى بدأت في كتابة هذا الكتاب, عندما اكتشفت كم المراسلات الهائل المكتوبة لي من طرف ممثل الحكومة البريطانية التي بدى أنها عالجت كل الأسئلة المطروحة عن المغرب.

لقد اقتطفت رسالة "ارنست" دون نية فضح عملي و لكن بغية الإستشهاد بها على التشجيع الوحيد و الإطراء علي من جهة رسمية, لكن الأمر القاسي هو أن كل أعمالي كانت ترسل الى الوطن دون ذكر اسمي.

و سأقتطف مرة أخرى او مرتين اوامر حكام السير "ارنست" : «أريد منك تحديدا أن تتحرى الأمر التالي .....», «سيكون الأمر هاما بما أنك في تلك المنطقة من المغرب, أن تذهب و تزور ...» « أود منك إيثارت إعجاب السلطان بأهمية ... » « أود منك العودة سريعا لأستقصي منك ... » .

كانت هذه الإقتباسات مما قد كتب.كانت التعليمات تتمادى أكثر فأكثر (لم تتم ترجمت كل الإقباسات لوصول الفكرة).
لقد كنت فخورا بأنني كنت ذا نفع و لن أتوانى في فعل ذلك مجددا.
لكن سياسة حرمان العامل غير الرسمي كانت خاطئة, و أن يتم نكران العمل الهائل لرجل مغامر بعد كل البحث و التقصي و صنع الصداقات مع الناس و خصوصا المغاربة, لا يشجع البتة, و في جميع الإعتبارات و الدبلوماسيات يعتبر الأمر خاطئا.
و منذ عام 1912 م بعد توقيع معاهدة الحماية (عقد كراء فرنسا للمغرب) الفرنسية, و حتى قبل ذلك الوقت, بعد أن أهملت بريطانيا أهدافها السياسية في المغرب, أصبحت معلوماتي أكثر قيمة الى أصدقائي ذوي السلطة أكثر منه لأنفسنا.
لقد دعيت عدة مرات لمرافقة مهمات فرنسية خاصة, و في مرات عدة تمت استشارتي في عدة مواضيع, و ذلك من قبل الوزارة الفرنسية و حكومة الوصاية الفرنسية.
كان ملفي الفرنسي ذا قيمة أكبر منه عند الإنجليز. فلدي تقدير وحيد من اقتباس السير "ارنست" بينما لدي العديد من رسائل الشكر و التقدير من باريس. واجباتي كمراسل لـ"التايمز" (جريدة بريطانية) كانت نادرا ما تضعني أمام الحكومة

الإسبانية, لكن هذا لم يمنعها من تقديم الشكر و التقدير من خلال سلطها في البلاد على ما قدّمت من معلومات و ما عالجت من أسئلة أكاديمية.

و في حياة مثل هته كان و لابد أن تمر علي لحظات من الإحباط و الإكتئاب بسبب الحمى ربما و الأحداث, بالنسبة لي كان الأمر أبعد منهما, إنني أتذكر تلك الأيام بشيء من المتعة, كانت كلمة تقدير واحدة تعني لي الكثير أنذاك.

لقد استمتعت بثقة ممثلينا و صداقة العديد منهم, لقد سنحت لي الفرصة لأرى أعمالهم الدبلوماسية, و أقول أن بريطانيا العظمى كانت محظوظة لتواجد هؤلاء الرجال في وزاراتها في هذا البلد. بعضهم غادر "طنجة" الى مكان آخر ليشغل منصبا أهم ـ السير "ارنست ساتوو", "آرثر نيكولسن" "جيرارد لوثر"ـ أحسن و أطيب الرجال, لكن واحدا و ربما كان الأذكى بينهم قرر البقاء الى الأبد, انه آخر منتدب بريطاني في المغرب, السير "ريجنالد ليستر", كانت خسارة بلاده له كبيرة و لأصدقائه أكبر.

(ترقبوا بقية الترجمة إن شاء الله مع تحياتي المترجم)